باب الانتقاد على المنار

مسألة فناء النار أو انتهاء عذاب أهلها

راجعنا أفراد من قراء المنار فيما نقلناه عن كتاب (هادي الارواح) في مسألة الخلاف في فناء النار وبقائها وما رجوناه من اقناعه لبعض المنكرين لعدم نهاية عذابها مع عدم تضرر المؤمنين بقول الجمهور به. ورأينا بعضهم فهم من كلام ابن القيم أنه يرجح القول بفناء النار ويختاره واننا وافقناه على ذلك بما قفينا عليه ، ولم نر أحداً منهم فهم قولنا حق الفهم ولا قوله ، وقد تيسر لنا افهام من كلمنا في ذلك مشافهة حتى اتفقنا فيه رأياً

وكتب الينا بعض اخواننا في ذلك مستعظماً للامر ظاناً أنه كلام يهدم الدين ، ويؤيد شبه المرتدين ، ويجرئ عصاة والفساق على ارتكاب الفواحش والمنكرات ، وقد كتبنا اليه بعض التوضيح لقولنا والتذكير بما لعله ذهل عنه وفتحنا له باب الرد على ما أنكره وازالة شبهات من يظن أنه يفتتن به ، فشرع في ذلك ، ثم رأينا ان نبين له ولغيره من القراء المسائل الآتية ونذكرهم ببعض ماسبق لنا من القول في أمثال هذه المسائل

(١) ان المسألة خلافية بين المسلمين لا اجماعية وقد نقل الامام الطحاوي فيها ثمانية مذاهب في عقيدته عزا اثنين منها الى أهل السنة أحدهما ان الله تعالى يبقيها ما يشاء ثم يفنيها ، والآخر قول الجمهور المشهور ، وابن القيم لم ينقل الا سبعة أقوال ، وقد ذكر الخلاف في كثير من كتب العقائد والتفسير والحديث ، ومقتضى كلام الطحاوي ان مذهب بعض الصوفية فيها كمذهب الجهمية ليس من مذاهب السنة

(٢) ان الطحاوي لما ذكر القولين اللذين عزاهما الى أهل السنة قال : ولينظر في دليلهما . فجاء بعده ابن القيم وبسط دلائلهما ، ولم يجزم بهذا ولا ذاك بل فوض الامر فيه الى ارادة الله ومشيئته وهو قول أو ما لأهل السنة

(٣) ان المنار لم ينشر مطويا فالكتب التي ذكر فيها الخلاف متداولة بين الناس ولا سيما الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي وشرح عقيدة السفاريني ومازاد هادي الارواح على غيره الا تلك المسائل الدقيقة في حكم الثواب والعقاب ورحمة الله تعالى وحكمته في الجزاء والتفرقة بين صفات ثابتات كالحكمة والرحمة وصفات الافعال كالرزاق والمحيي والمميت والمنتقم وهي التي نوهنا بفضله

واثنينا على سعة علمه ومعرفته لاجلها دون أصل المسألة المشهورة قبله .

(٤) اننا قد بينا غير مرة في المنار أن المعتمد عندنا في التفسير وأصول الدين وفروعه ظواهر النصوص مجتمعة وفي اختلاف العلماء ما كان عليه جمهور السلف ان علم بالنقل الصحيح ، واننا اذا أوردنا في المنار أقوالا أخرى فانما نقصد بذلك دفع بعض الشبهات عن الدين أو تقريب بعض مسائله الى بعض من لا يفقهم غيره بحسب اختبارنا . وعلى هذه القاعدة جرينا في تفسير آية الأنعام فان فيها بعد ذكر الخلود الاستثناء بمشيئة الله تعالى وتعليل هذا الاستثناء بقوله تعالى (ان ربك حكيم عليم) وقد فوضنا اليه سبحانه الامر في ذلك وبينا ان مشيئته في ذلك مجهولة لنا ولا يعلمها حق العلم غيره سبحانه وانما تتعلق بما يقتضيه علمه وحكمته ووعدنا بتحرير الدلائل في المسألة عند تفسير آيتي سورة هود فيها

وقد سبق لنا تحقيق مثل هذا التفويض في تفسير قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام في قومه (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) وبينا فيه ضعف من اضطرب فيه من المفسرين لصراحة العبارة في جواز المغفرة لمن اتخذه وأمه الهين من دون الله ومنه أقوال بعض مفسري الاشعرية باستحسان غفران الشرك كما صرح به أبو السعود والآلوسي وأطنب الرازي في ذلك وأتى بعدة وجوه في تأييد مذهبهم رددناها عليه أقوى رد بفضل الله علينا ، وبينا وجه تذييل الآية بصفتي العزة والحكمة دون المغفرة والرحمة بما لم نطلع على مثله لاحد

(٥) ان قيل انه تعالى بين في سورة النساء انه لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فهذا تقييد للمشيئة ينقض قول الاشعرية . قلنا انما يدل هذا على أن العقاب على الشرك حتم مقضي ولكنه لا يدل على أنه سرمدي لا نهاية له بل هذه مسألة أخرى ، وجمهور العلماء يقيدون المشيئة بغير هذا النص أيضا اذ صرحوا بأنه لا يغفر لمن يوحد الله ولا يشرك به اذا لم يؤمن بملائكة الله ورسله واليوم الآخر ، ولا لمن جحد أي أمر مجمع عليه معلوم من دين الاسلام بالضرورة ، ويؤولون النص في جواز غفران ما دون الشرك كالنص في خلود متعمد القتل في جهنم بناء على مذاهبهم فأكثر التأويل لتصحيح المذاهب المتبعة لا للجمع بين النصوص وتقديمها على جميع المذاهب ، والآيات تثبت

اطلاق المشيئة الا انها لاتعارض غيرها من صفات الله ومدلول كلامه

(٦) ان مرادنا بقولنا : ان هذا البحث لا يضر المؤمنين بقول الجمهور مقلدين كانوا أو مستدلين — ظاهر جلي وهو أنهم يردون القول المخالف لما قلدوهم أو لدلائلهم فلا يترتب عليه أثر في أعمالهم، ونزيد على ذلك انه لا يضر أحداً من المؤمنين مطلقاً وان سلمه لان جواز تعلق مشيئة الله تعالى بانتهاء عذاب الكفار بعد لبثهم في النار احقاباً لا يصح أن يكون سبباً لترك المؤمن الصادق لشيء من الواجبات ، ولا لارتكابه لشيء من المحرمات ، ولكن في كتب الفقه والكلام والمواعظ والادب وخطب المنابر كثيراً من الاقوال التي ازالت حرمة الاوامر والنواهي من قلوب الجم الغفير من الناس وكان من أثرها ما نراه من ترك الصلاة ومنع الزكاة والمجاهرة بالفطر في رمضان وفشو السكر والزنا والقمار . . . كالكلام في تخلف الوعيد والعفو والمغفرة والكفارات والشفاعات والكرامات ، وقد شرحنا ذلك مراراً ورددنا شبهات القائلين فيها وبينا ما له أصل منها وما هو موضوع باطل كحديث اعتاق ستمائة الف عتيق من النار في كل ليلة من رمضان . . . ولم يكتف خطباء الفتنة وعلماء التقاليد بتلقين الدهماء هذه الموضوعات بل تصدى بعضهم لرد ما يرد عليها كأنها من أصول الدين كقول بعضهم اذا كان عدد عتقى رمضان يزيد على عدد مسمي الارض كلهم ولا سيما في زمن النبي (ص) فان الله تعالى يكمله من الجن :

واني بما اتفق لي من الاختبار الواسع للناس وبقدر ما أوتيت من العقل والفهم اجزم بأنه يندر أن يكون الخوف من العذاب الابدي سبباً لاستجابة كافر لدعوة الدين ، بل هذا قلب للمعقول لانه يتوقف على التصديق بالعذاب المذكور قبل الايمان بالرسول وبما جاء به ، وهذا قلما يقع الا لافراد من المعاندين كبعض كبراء مشيخة قريش في زمن البعثة .

(٧) لا انكر ان بعض المارقين والملاحدة المشاغبين قد تزيدهم أمثال هذه المباحث رجساً الى رجسهم من حيث تزيد المؤمنين ايماناً بالله تعالى (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين) الذين فسقوا من نور الفطرة والاستعداد للهداية كما تفسق الرطبة من قشرتها وانما ارجو أن يهتدي بهذا البحث بعض المرتابين من أهل النظر الذين يؤمنون بان لعالم الخلق عليما حكيما ، وربا رؤوفاً رحيما ، وان من حكمته الجزاء على الاعمال النفسية والبدنية ،

وان جزاءه عدل وفضل، ويستحيل عليه الجور والظلم، وهم ينظرون ويتفكرون، وإذا ظهر لهم الحق يقبلونه وله يذعنون، وأما اولئك المارقون المستهزءون من أهل الرقاعة فلا يلتفت اليهم ولا يبالي عاقل بامرهم، إلا ان يشفق عليهم ويحزن لكونهم من امته أو ابناء جنسه

(٨) ان الشبهة التي أشرنا اليها ليست واردة على بقاء دار العقاب التي تسمى النار والجحيم والهاوية وجهنم وغير ذلك من الاسماء فقد تبقى وينقلب عذابها عذبا كما زعم الشيخ محيي الدين بن عربي وشيعته أو لتعذيب خلق آخر من المكلفين مثلا — ولا على أصل العقاب فيها فطالما أفحمنا المنكرين لهذا بأنه حق وعدل. وانما يقول أصحابها وهم من المنتسبين الى أديان مختلفة: ان المختبر لاحوال البشر يعلم علما يقينيا انأ كثرهم ينشأ متدينا بالدين الذي نشأ عليه بين قومه وأهل ملته تقليدا لهم وتسليما ثم يعرض لبعضهم الشك والريبة في دينه وفي سائر الاديان بالتبع ويتفق لبعض آخر الاطلاع على دين آخر والاقتناع بحقيته فيتبعه، ولكن يقل جدا أن يظهر لاحد حقية دين ويجحد به كبرا وعنادا كما وقع لبعض كبراء أقوام الرسل عليهم السلام في عصرهم، ثم ان المتدينين يعملون بما يعلمون من أديانهم على تفاوت عظيم بينهم في العمل سببه تأثير التربية والقدوة وطريقة التعليم له؛ ويعلم ايضا ان بعض المرتدين عن اديانهم بشبهات نظرية او علمية يؤمنون بالله ولا يشركون به شيئا؛ وان بعض المتدينين بالاديان الكتابية كغيرها يشركون بعبادة الله تعالى اشياء كثيرة من الاحياء والاموات كما ان بعض المرتدين احسن من بعض المتدينين اخلاقا واعمالا وانفع منهم للناس وللاوطان؛ ويقولون اننا مع هذه الحال نرى اهل كل دين يقولون ان الموافقين لهم في دينهم لانهم ولدوا فيهم وتربوا بينهم هم وحدهم اصحاب النعيم المؤبد الذي لانهاية له وان جميع المخالفين لهم سيكونون في عذاب اليم مؤبد لانهاية له سواء عرفوا حقيقة دينهم او جهلوها، بل يعلم اكثر اهل البصيرة والاختبار ان اكثر المخالفين لهم لا يعرفون حقيقة دينهم؛ وان من يعرف شيئا منه يقلما يعرفه على وجهه عندهم؛ وان ليس كل من يعلم شيئا منه على حقيقته يقوم عنده الدليل على صحته — ونتيجة ماتقدم ان اكثر افراد البشر مقلدون في دينهم لمن تربوا معهم وتعلموا منهم؛ وان غير الاكثر اهل نظر واستدلال يرجحون مايثبت عندهم بحسب درجات نظرهم واستدلالهم على غيره في العقائد

والاعمال — فالذي اصاب الحق من المقلدين لا فضل له في اصابته اذ لا عمل له فيه ولا اجتهاد ، والمقلدون في هذه الاعصار انما يتبعون جمهوراً مقلداً فلا يكاد يتفق لاحد منهم ان يصيب الحق في جميع المسائل ، واذا كان التقليد حجة لصاحبه فيما وافق الصواب وعذراً فيما خالفه كما يقول اكثر اهل كل ملة في انفسهم فلماذا كان ذلك خاصا بهم والله رب الجميع وهو الحكم العدل

ثم انهم يقولون لاهل كل دين أنتم قد تفرقتم في دينكم وكنتم شيعاً فحكم كل شيعة على الاخرى بالكفر أو الابتداع والضلال فاذا كان الواجب على جميع البشر أن يتبعوكم وكان كل من لا يدين بدينكم خالدا في العذاب بالمعنى الذي تقولون فاي مذاهب الشيع يجب عليهم الاخذ به لينجو من الهلاك الابدي ؟ إن قصارى قول كل شيعة بل كل فرد منكم ان من يدين الله بدينه ويموت على عقيدته هو الناجي الفائز بالنعيم الابدي وان عاش العمر الطويل قبله على غير ذلك ، وان كل من مات على غير عقيدته يخلد في العذاب الاليم الابدي وان عاش العمر الطويل قبله على الايمان بالله وحده و بالبعث والحساب وعمل البر والاحسان بتعاليم دين آخر أو باجتهاده

فورد الشبهة بعد هذا البيان ان أكثر أفراد هذا الانسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم وكرمه وفضله على كثير من خلقه تفضيلا انما خلقهم تعالى لاجل أن يعذبهم عذاباً شديداً أليما مهينا أبدياً عمر الالوف والملايين من الاحقاب والقرون وهو لا يزداد الا شدة واستمراراً وان هذا العقاب جزاء عادل على مسائل اعتقادية قليلة كان أكثرهم جاهلا بها وغافلا عنها لانه لم يدعه أحد اليها البتة ، وقد بلغت بعضهم على وجوه مختلفة منكرة لا على وجه صحيح يحرك داعية النظر فلينظر فيها . وبعضهم نظر وبحث فلم يتبين له أنها الحق . وبعضهم ليس أهلا للنظر بوصوفه في تقليد أهل دينه واطمئنانه به — وان هذا العقاب الابدي الاليم لا ينافي ما ثبت في العقل والنقل من عدل الله تعالى وحكمته وسعة رحمته وكونه أرحم الراحمين بل أرحم من الوالدة الرءوم بطفلها الرضيع . هذا ما يقولون انهم لا يعقلونه فيؤمنوا به وليس في طاقتهم ان يعتقدوا صحة دين يحكم به ويحتمه

(٩) اني احمد الله تعالى انني وقفت لاقناع كثير من الناس مختلفي الدين والجنس

بحكمة الله وعدله في عقاب المجرمين كما وفقني لاقناع من لا أحصي لهم عددا من المرتدين والمعطلين الماديين بوجود إله خالق واحد وبالرسالة وبكثير من أصول الدين وحكم فروعه وموافقة الدين الاسلامي للعقل ولمصالح البشر في دنياهم. وانني ابتليت بمراجعة الناس لي في ذلك من أيام طلبي للعلم لانني كنت كثير البحث فيه بالميل الفطري حتى إن بعض الشيوخ في طرابلس الشام كان يراني في السوق فيسألني عن بعض مشكلات الشريعة ووجه مطابقتها للعقل أو للمصلحة العامة. وحدثني دانش بك الذي كان امين السر لمحمود باشا الداماد والد الامير صباح الدين بك التركي الشهير حين جاء من مصر في أوائل العهد بهجرتي اليها أن الاستاذ الامام قال له: أنني لا أعرف أحدا أقدر من هذا الشاب صاحب المنار على التوفيق بين الدين وبين العقل والمدنية. ثم أقول بعد هذا وحمد الله عليه عودا على بدء انني لم أعجز عن إقناع منكر لشيء من أصول الدين أو حكمه كما عجزت عن اقناع المنكرين لابدية العذاب الاليم الشديد انكارا شنيعا وارتيابا لا جحود وعناد، فان الجاحد المعاند لهوى في نفسه لا يقتنع بالضروريات بله المشكلات، ولكنني اذا قلت لبعضهم ان لبعض السلف والخلف من المسلمين قولا بانتهاء العذاب وقولا بتفويض الامر فيه الى الله تعالى قالوا اننا نجزم بأن عظمة الله تعالى وحكمته ورحمته تجل عن تعذيب هؤلاء العباد الضعفاء الجاهلين الى غير نهاية فأي الامرين أجدر بهؤلاء؟ أ الجزم بأن عدم نهاية العذاب الشديد لمن ذكر من أصول الدين التي يعد غير المؤمن بها مرتدا لا يعتد باسلامه أم اقناعه بأن اعتقاده لا ينافي الاسلام وان له أسوة بمن سلف من المؤمنين ولو الجهمية الذين لا يكفرهم أهل السنة بما خالفوهم فيه من استدلال وتأول؟

(١٠) بعد هذا كله أصرح هنا بأن مسألة فناء النار أو انتهاء عذابها الاليم الشديد مع بقائها ليست عندي من المسائل التي ادعو اليها وأناضل عنها ولا أبالي أن أنشر لمن يرد عليها ما يكتبه على علاته، غير نقد لما أراه منتقدا منه بشرط ألا يطيل بما لا حاجة اليه في الموضوع أو مما سبق ذكره لأن فيه تضييعا لحق المبين بالقول الآخر، وان يبين صفة من لا ينتهي عذابهم ومن لا ينتهي ليعلم التي استحق بها كل منهما ذلك وأتمنى لو يوفق أحد لشيء يقنع من ذكرت، والله الموفق للصواب